أبحاث ندوة عمارة المساجد، م ١ أ، ص ص ٣٥-٥٤، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م)

الحرم المكي الشريف: نشوءه وتوسعاته وتأثيره على محيطه العمراني قبل التوسعات السعودية

محمد عبد الله بن صالح

قسم العمارة وعلوم البناء، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود

الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث: يرجع تاريخ الاستيطان في مكة المكرمة إلى زمن إبراهيم عليه السلام عندما استقر بزوجته هاجر وابنه إسماعيل عليهما السلام بموقع بالقرب من مكان الكعبة وعند بئر زمزم لتكون هذه البقعة بعد أذان إبراهيم عليه السلام بالحج مهوى أفئدة الناس ونواةً للاستقرار ومهداً للدين الإسلامي الذي شع بنوره بعد الفتح العظيم في السنة الثامنة من الهجرة على جميع البقاع.

مر الحرم المكي الشريف منذ ذلك الحين بسلسلة متعاقبة من التوسعات والتطورات اختلفت نسبتها من فترة إلى أخرى، وتمتعت مكة المكرمة بازدهار اقتصادي كبير تبعه نوسع عمراني وتطور في كل أوجه الحياة. تذكر بعض الروايات التاريخية أن الحرم قد عانى في فترات من الإهمال تعرضت بسببه مكة إلى ركود اقتصادي وعدم استقرار سياسي.

فعلى الرغم من تاريخ مكة العريق الذي يعود إلى أحقاب طويلة ممعنة في القدم، فإن البداية الجلية لهذه المدينة المقدسة كانت بعد بناء الكعبة من قبل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. أدى تولي قصي بن كلاب، الجد الرابع للرسول ﷺ، على مكة أن أسس مبادئ الاستقرار بالقرب من الكعبة المشرفة وكذلك أسس بدايات النظام الإداري لهذه الحاضرة المقدسة. كما يعتبر إحاطة سور حول المسجد الحرام من قبل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أول تحديد للنطاق العمراني حول المسجد الحرام. بعد ذلك توالت أعمال التوسعات للمسجد الحرام واصبح يرافق كل عملية توسعة زحف من العمران على جنبات الأودية وفوق نسيج الجبال.

المقدمة

إن المتتبع لمراحل النمو الحضري لمدينة مكة المكرمة يجد أن الأسباب الدينية المتمثلة في وجود المسجد الحرم هي التي تفسر موقع وشكل التطوير في المدينة المقدسة أكثر مما تفسره الأسباب الدنيوية الأخرى. سخر الله خليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام لبناء الكعبة ولينشرا الحنيفية في ربوع الجزيرة العربية والعالم أجمع. ومن قبل ذلك التاريخ وبعده زار مكة وحج كعبتها الأنبياء والرسل والموحدين. وأرسل الله رسوله محمداً بن عبد الله ﷺ من هذه البقعة المباركة وبعثه إلى العالم كافة، لينشر الدين الإسلامي خاتم الأديان. فكانت مكة مهدا للوحي، ومناراً للعالم الإسلامي يتطلع إليها المسلمون بشوق بالغ وتتجه وجوههم لها خمس مرات في اليوم. فنمت مكة واتسعت أطرافها وسكنتها عدة قبائل عربية مثل جرهم وقطورا وخزاعة ثم قريش. وقريش هم ممن تجمع من بني كنانة

وقضاعة لنصرة ومؤازرة قصي بن كلاب على خزاعة، وبهذا أصبح قصي بن كلاب أول رجل من بني كنانة أصاب ملكاً، وسمي قصي مجمعاً لأنه جمع قريشاً بمكة، وسميت قريش في ذلك العام قريشاً لأنها تجمعت والتقريش هو التجمع في بعض كلام العرب و لم يسم قرشي قبل ذلك اليوم.[١]

ما كاد يتسلم قصي زمام الحكم في مكة حتى أسس دار الندوة لشورى قريش في مهام الأمور، و لم يكن يدخلها من قريش إلا من بلغ الأربعين.[٢] أما المناصب الأخرى التي تولاها قصي في بداية حكمه فهي الحجابة وهي السدانة وتعنى الأشراف على الكعبة، والرفادة وهو توفير الطعام للحجاج، والسقاية وهو توفير الماء للحجاج فقد وزعها القرشيون فيما بينهم بالعدل ليرضوا كل بطون قريش وحتى لا يدب التنافس بينها. كما أن قصياً كان أول من أوقد نارا في منى ليهتدي بها الحجيج ليلة النفرة من عرفات.[١]

ويحرص قريش على خدمة الحجاج ورعاية قدسية البيت الحرام ارتفعت مكانتها في نفوس العرب، وقوي مركزها الأدبي، وابتدعت بعض النظم والتقاليد لتحقق لنفسها شيئاً من السيادة الأدبية والنفع الاقتصادي. كما اجتهدت في توفير الأمن بمنطقة مكة، حيث كانت المنطقة تسودها غارات السلب والنهب. ومدت حدود الحرم حتى جعلتها تشمل منطقة مكة كلها فلا يجوز سفك الدماء ولا طلب الثأر، وجعلت الأمن يشمل كل شيء حي من طير ونبات وحتى الوحوش. كما سنت الأشهر الحرم وهي أربعة أشهر رجب الشهر السابع من التقويم الهجري وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ويتم الحج في شهر ذي الحجة.

استمر أمر مكة في أيدي القرشيين من أحفاد قصي بن كلاب حتى السنة الثامنة من هجرة الرسول ﷺ، وهي سنة الفتح العظيم للإسلام عندما دخل الرسول ﷺ والمسلمون مكة منتصرين على المشركين من قريش. وبعد أن استتب أمر مكة للمسلمين، ولّى رسول الله ﷺ على مكة عتاب بن أسيد القرشي رضي الله عنه، وأوصاه بمكة وأهلها حيث قال صلوات الله وسلامه عليه " أتدرى على من وليتك يا عتاب ...؟ على جيران بيت الله، فأستوص بهم خيراً." وبهذه الوصية الشاملة استمر الخلفاء الراشدون، والخلفاء وحكام الدول الإسلامية من بعدهم على رعاية مكة المكرمة وأهلها وعمارة وصيانة مقدساتها.

نشوء وعمارة الحرم المكي الشريف

عمارة الملائكة للبيت الحرام: اختلف المؤرخون في أول من بنى الكعبة المشرفة، غير أن المؤكد أنها أول بيت وضع للناس كما جاء في محكم التنزيل ﴿إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾. [آل عمران، آية٩٦] وإن كان قد غاب عن ذاكرة التاريخ معظم تفاصيل الفترة الأولى من قصة الكعبة، لكن الذي تؤكده بعض الروايات أن الملائكة هم الذين قاموا بتشييدها قبل آدم عليه السلام.[١] يقول بعض المحققون أنه إذا ثبتت قصة البناء قبل الخليل عليه السلام فهو بناء تأسيس فقط.[١] فالكعبة المشرفة بيت الله جل جلاله، وقد ذكره الله سبحانه وتعالى إذ قال: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾. [البقرة، آية١٢٥]

فالكعبة المعظمة هي هذا البناء الشامخ الجليل الذي يقع في قلب الحرم المكي الشريف، وهي قبلة المسلمين ومحط أنظارهم، يلتف الناس حولها في جميع الصلوات، ويطوفون بها في الليل والنهار، ولا ينقطع طوافهم حولها إلا في أثناء الصلوات الخمس، عندها يقف الجميع أمامها وفي اتجاهها في خشوع وتبتل يؤدون الصلاة المكتوبة عليهم. وأما تسمية البيت المعظم بالكعبة فقد ورد في ذلك عدة روايات منها ما ذكره ابن منظور في لسان العرب أنه قال "سميت كعبة لتربيعها"[٣] والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة، وقال أيضا "سميت كعبة لانفرادها من البناء" وقيل "سميت كعبة لارتفاعها عن الأرض" وأصلها من الخروج والارتفاع، وكل شيء علا وارتفع فهو كعب.

عمارة إبراهيم : لقد عرفت مكة منذ أحقاب طويلة ممعنة في القدم قبل عهد إبراهيم عليه السلام. غير أنه من المؤكد أن الأمر بهجرة إبراهيم بزوجته هاجر وابنه إسماعيل عليهم السلام يمكن اعتبارها البداية الجلية لتاريخ مكة.[٤] وعند وصول إسماعيل كانت قبيلة جرهم قد حلت محل العماليق، سكنت وادي مكة أو على مسافة قصيرة منها.[١]

لقد حددت العناية الإلهية موضع هذا المكان المقدس وهيأت له أسباب الحياة والدوام استجابة لدعوة أبينا إبراهيم عليه السلام ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾. [إبراهيم، آية٣٧] فكانت بئر زمزم الذي نبع بمعجزة من الله سبحانه وتعالى ليروي ظمأ الرضيع إسماعيل وأمه عليهما السلام.

حين بدأ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إعادة بناء الكعبة وذلك برفع القواعد من البيت في المكان الذي اختاره الله سبحانه وتعالى وأرشدهم إليه جبريل عليه السلام، كان إبراهيم يضع الحجارة فوق بعضها ويناوله إياها إسماعيل. ذكر ابن اسحق في سيرة ابن هشام أنه عند تمام البيت كانت المسافة بين الحجر الأسود والركن الشامي اثنين وثلاثين ذراعا وبين الركن الشامي والركن الغربي عشرين ذراعا وبين الغربي واليماني وأحدا وثلاثين ذراعا وبين اليماني والحجر الأسود عشرين ذراعا.[٢]

نما هذا المكان واتسعت أطرافه، وسكنته جرهم وأحفاد إسماعيل الذي تزوج منهم. ويروي لنا المؤرخون أنه بعد وفاة إسماعيل بقرنين من الزمن كان يحكم أهل مكة أحد أحفاد إسماعيل عليه السلام وقد انقسم أهلها إلى قسمين: جرهم وقطورا.[١] وكانت مساكن جرهم قد امتدت من بطن وادي إبراهيم بجوار زمزم إلى جبل قعيقعان في الشمال وإلى أعلى مكة مما يحاذي موقع القشاشية والشمال الشرقي من المسعى في الوقت الحاضر. كما تغلغل أبناء عمومتهم من قطورا شعب أجياد منحدرين إلى أطراف موقع المسفلة . وكانت الكعبة الشريفة البناء الوحيد في مكة ذلك الوقت، أما مساكن هؤلاء فكانت مضارب من الشعر تتلاصق أو تتباعد في حواشي الوادي وبين ثنيات الجبال المحيطة بالكعبة.

عمارة قصي بن كلاب: حدث أن اختلفت جرهم مع قطورا، كما نازعتهم على السيادة في أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الميلادي قبيلة قحطانية قدمت من اليمن أثر سيل العرم هي قبيلة خزاعة، التي استولت على مكة وورثت الحكم فيها وطردت قبيلة جرهم منها.[١] أما أبناء إسماعيل فقد اعتزل بعضهم أخوالهم من جرهم غير راضين عن أعمالهم في مكة، فلم يناوؤا القحطانيين من خزاعة حيث ظلوا على حيادهم حتى إذا استتب الأمر لخزاعة سألوهم السكنى معهم فأذنوا لهم. أما البعض الآخر فقد تفرق بين اليمن والبحرين (منطقة الأحساء) وأطراف الحجاز، وقيل أن بعض قبائلهم وصلت إلى العراق والشام وسمي هؤلاء بالعدنانيين وكان من بين هؤلاء قصي بن كلاب الذي عاش بعيداً عن مكة موطن أجداده، غير أنه قرر العودة إليها، فآلت إليه أمور مكة وزعامتها وذلك قرابة منتصف القرن الخامس الميلادي.[١] جمع قصي قومه فأنزلهم مكة بجوار قبيلة خزاعة، التي بقيت تسكن مكة تحت إمرة قصي. ومنذ ذلك الحين انتشرت بطون قريش في شعاب مكة.

وقد أمر زعيم قريش قصي بن كلاب قومه ببناء مساكنهم حول الكعبة حتى تحميهم العرب وتعظمهم.[١] وبذلك يعتبر قصي أول من صمم المدينة وقام ببناء دار الندوة لاجتماع زعماء القبيلة وذلك ليقضي فيها أمور الناس وتقع دار الندوة في الجزء الغربي من الكعبة، وهي أول دار بنيت في مكة المكرمة سنة ١٥٠ قبل الهجرة (أواخر القرن الخامس الميلادي) ، وكان بناؤها من الطين والحجارة.[٢] ثم خط قصي بن كلاب للكعبة ساحة دائرية توازي صحن المطاف القديم وسمح للناس أن يبنوا دون ذلك حول مدارها من الجهات الأربع. وقد بنى مساكنه ومساكن أبنائه بحيث تطل على ساحة الكعبة، ومن يومها ابتدأت المساكن الدائمة في مكة المكرمة، وأخذت تزداد تدريجيا من حول الكعبة، وكانت تلك المساكن بسيطة في مواد بنائها حيث كانت تبنى من الطين والحجارة مدورة في شكلها تعظيما للكعبة المشرفة من أن يقلد بنيانها المربع الشكل، ولم تسور ساحة الكعبة، ولم يسمح لأحد بأن يرتفع ببنائه إلى مستوى ارتفاع الكعبة حتى يظل البيت العتيق مشرفا على كل المنطقة. وكانت مساكن قريش منحصرة في بطن الوادي وعند سفوح الجبال التي تحيط بالكعبة في جميع الجهات، ولم ترتفع مبانيهم على جوانب الجبال كما هو الحال الآن.

يتضح من هذه الصورة أن العمران بدأ وأخذ في الكثافة من باب بني شيبة بقرب حصوة باب السلام القديمة حيث كانت بيوت السفيانيين، وبعض بطون من غساسنة الشام، ودوراً لبني عامر بن لؤي، وأخرى لآل عدي من ثقيف. ثم نجد شِعب ابن يوسف (شِعب علي حاليا) حيث تقع دور بني عبد المطلب، ثم يلتوي شِعب عامر ليضم دوراً لبني بكر وأخرى لبني عبد المطلب، وعلى السفوح المطلة على المروة نجد دار أبي سفيان ودوراً لبني عبد شمس وآل زرارة. وفي أجياد كان بنو تميم وبنو مخزوم يسكنون مما يلي الحرم، يليهم جماعة من الازد. وفي المسفلة مما يلي الحرم كانت تنزل بطون من آل صيفي وبينهم جماعة آل عبد الدار وجماعة من بني مخزوم، وفي منطقة السوق الصغير كانت تنزل بطون من بني أسد بن عبد العزى.

ويمكننا القول أن العمران في مكة كان كثيفا نسبيا في بطون وادي إبراهيم وممتدا على السفوح المجاورة لجبل قعيقعان (جبل هندي) وجبل أبي قبيس متوجها إلى أعلى مكة، وعلى المنحدرات الدنيا لأجياد الكبير (بير بليله) وأجياد الصغير (أجياد السد) وأطراف المسفلة مما يلي الكعبة وما جاورها، بينما كانت مناطق جرول والشبيكة

وحارة الباب ضواحي قليلة العمران في تلك الفترة. وساعد مكة على الازدهار في هذه الفترة بعد آخر يتمثل في كونها مركزا تجاريا يقع على طريق القوافل بين دول الجنوب وممالك الشمال، إذ كانت أسواقها تزدحم بالتجار صاعدين إلى الشام أو هابطين إلى اليمن، فمهروا في التجارة وأصبحوا في ثراء ويسر كبيرين. فإذا أضفنا إلى ذلك المكانة الدينية لمكة بوجود الكعبة التي قدسها عرب الجاهلية وكانوا يحجون إليها ويودعون فيها أصنامهم، أدركنا أنها نمت وازدهرت في هذه الفترة من خلال كونها مركزا للتجارة بالإضافة إلى كونها عاصمة روحية. ومن ثم لا عجب أن نرى التركيبة السكانية لا تقتصر على العرب وحدهم، إذ كانت مكة في عهد قريش تشبه عواصم اليوم في كونها تضم جاليات أجنبية يهبطون إليها بفنونهم وأموالهم وبعض علومهم.

عمارة قريش: ذكر ابن فهد أنه في السنة الخامسة والثلاثون من مولد النبي ﷺ هدمت قريش الكعبة، وجددت عمارتها. وقد كانت الكعبة مبنية بردم يابس ليس بمدر وكان بابها بالأرض و لم يكن لها سقف وإنما تدلى الكسوة على الجدر من الخارج وتربط من أعلى الجدر في بطنها، وكان في بطن الكعبة عن يمين من دخلها جب يكون فيه ما يهدى إلى الكعبة من مال وحلية كهيئة الخزانة.[1] وكان قرنا الكبش الذي ذبحه إبراهيم خليل الرحمن معلقين في بطنها بالجدار تلقاء من دخلها يخلقان ويطيبان إذا طيب البيت، وكان فيها معاليق للحلية التي كانت تهدى للكعبة. ثم إن امرأة من قريش ذهبت تجمر الكعبة فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها وتحولت إلى رماد مما تسبب في ضعف وتصدع جدران الكعبة من كل جانب، ففزعت قريش من ذلك فزعا شديدا وخافوا أن تنهدم وهابوا هدمها وخشوا إن مسوها أن يترل عليهم العذاب. وبينما هم بتلك الحال يتشاورون في أمر إعادة بنائها إذ جاءهم الخبر أن سفينة من الروم انكسرت بالقرب من الشعيبة - وهي يؤمئذ ساحل مكة - فركب الوليد بن المغيرة في نفر من قريش فاشتروا خشبها وأعدوه لسقف الكعبة وأذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاع. وزعم أنه كان في السفينة نجار رومي يسمى باقوم وكان بانيا فكلموه بأن يقدم معهم ويبنى لهم الكعبة على بنيان الشام.[2] فلما قدموا بالخشب لمكة أمروا بالحجارة أن تجمع بين أجياد والضواحي فكانوا ينقلون الحجارة تبررا وتبركا بالكعبة، الرجال تنقل الحجارة والنساء ينقلن الشيد[1]. وكان النبي ﷺ ينقل معهم الحجلوة.

ولما جمعوا ما أخرجوه من النفقة لبناء الكعبة قصرت أن تبلغ بهم عمارة البيت كله. فتشاوروا في ذلك فأجمع رأيهم على أن يقصروا عن القواعد ويحجروا ما يقدرون عليه من بناء البيت ويتركوا بقيته في الحجر عليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه ففعلوا ذلك. وبنوا في بطن الكعبة أساسا يبنون عليه من شق الحجر، وتركوا من ورائه في الحجر ستة أذرع وشبرا فبنوا على ذلك فلما وضعوا أيديهم في بنائها قال أبو حذيفة بن المغيرة: يا معشر قريش ارفعوا باب الكعبة عن الأرض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول، ولا ترقى إلا بسلم، ولا يدخلها إلا من أردتم، ثم إن جاء أحد ممن تكرهون رميتم به فسقط فكان نكالا لمن رآه. ففعلوا ذلك وبنوها بساف من حجارة

---

[1] الشيد : كل ما طلى به البناء من جص ونحوه

وساف من خشب بين الحجارة حتى انتهوا إلى موضع الركن فاختلفوا في وضعه وتنافسوا في ذلك حتى تواعدوا للقتال. فمكثوا أربع ليال أو خمس كذلك ثم تشاورا فقال أبو أمية حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكان أسن قريش يومئذ يا قوم إنما أردنا البر و لم نرد الشر فلا تحاسدوا ولا تنافسوا فإنكم إذا اختلفتم تشتت أموركم وطمع فيكم غيركم ولكن حكموا بينكم أول من يدخل باب هذا المسجد، يريد باب بني شيبة، فقالوا رضينا وسلمنا، فطلع رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا هذا الأمين قد رضينا بما قضى بيننا. فلما انتهى إليهم واخبروه الخبر وضع رداءه وبسطه في الأرض، ثم وضع فيه الركن بيده ثم قال ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل فكان في ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة وفي الربع الثاني أبو زمعة بن الأسود بن المطلب وكان أسن القوم وفي الربع الثالث العاص بن وائل وقيل بن عدي السهمي، وفي الربع الرابع أبو حذيفة بن المغيرة. ثم قال رسول الله ﷺ ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعا، ثم ارتقى على الجدر ورفع القوم إليه الركن حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه رسول الله ﷺ بيده في موضعه ذلك، وناوله العباس حجرا فشد به الركن. فبنوا حتى رفعوا أربعة أذرع ثم كبسوها ووضعوا بابها مرتفعا على هذا الذراع ورفعوها بمدماك خشب ومدماك حجارة.[٢] وكرهوا أن تكون بغير سقف فلما بلغوا السقف بنوه مسطحا وجعلوا فيه ست دعائم في صفين في كل صف ثلاث دعائم من الشق الشامي الذي يلي الحجر إلى الشق اليماني وجعلوا ارتفاعها من خارجها من الأرض إلى أعلاها ثمانية عشر ذراعا وكانت قبل ذلك تسعة أذرع، فزادت قريش في ارتفاعها تسعة أذرع أخرى.[٢] وبنوها من أعلاها إلى أسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب، وكان الخشب خمسة عشر مدماكاً، والحجارة ستة عشر مدماكا ثم جعلوا ميزابها يسكب في الحجر وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي يصعد فيها إلى ظهرها. وزوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها وجعلوا في دعائمها صور الأنبياء. وكانت فيها صورة إبراهيم خليل الرحمن شيخ يستقسم بالأزلام وصور الملائكة عليهم السلام، وصور الشجر، وصورة مريم مزوقة في حجرها عيسى ابنها قاعدا مزوقا، و تمثال عيسى وأمه في العمود الذي يلي الباب، وجعلوا لها بابا واحدا. وكانوا يفتحون الكعبة يومي الاثنين والخميس، وكان الحجاب يجلسون عند الباب فيرتقى الرجل فإذا كانوا لا يريدون دخوله يدفع ويطرح وكانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء ويضعون نعالهم تحت الدرجة.[١]

الإسلام وعمارة المسجد الحرام وتوسعاته

اختار الله هذه البقعة المباركة لتكون الموطن الأول للدعوة إلى الإسلام، كما كانت الموطن الأول لدعوة التوحيد التي دعا إليها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، استمرت بيوت العرب مستديرة تحيط بالكعبة المشرفة يفصلها مساحة ضيقة هي المطاف. واشرق نور الإسلام من بطاح مكة وزلزل أركان قريش فقاومته في أول عهده ثم لانت قناتها للإسلام عند دخول الرسول الكريم ﷺ إليها فاتحاً في السنة الثامنة من الهجرة حيث قام بتحطيم الأصنام المحيطة بالكعبة وتنظيف المطاف من الأوثان وتهيئته للطائفين والركع السجود.

التوسعة الأولى : لم يذكر المؤرخون القدماء أي بناء للمسجد الحرام حول الكعبة المشرفة بل كانت الكعبة محاطة بالمنازل حول أرض المطاف، غير أن بين تلك المنازل طرقا يدخل منها الناس إلى صحن البيت الحرام، حتى كان

عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ حيث جعل حول المطاف حائطا ارتفاعه دون القامة من جميع الجهات. وكان عمر بن الخطاب أول من عمر الكعبة بعد سيل (أم نهشل) في العام السابع عشر من الهجرة، الذي جرف معه مقام إبراهيم إلى المسفلة، حيث قام بنصب المقام مكانه بعدما تأكد من أن أحد الصحابة قد تحسب لمثل هذا الأمر وعقد عقدا في حبل أبقاه عنده وتوضح العقد نقاط معينة من ركن الحجر الأسود وباب الكعبة. وقد قام عمر ﷺ بشراء الدور الملاصقة للمسجد الحرام وهدمها وادخلها في فناء المسجد. وقد واجه عمر ﷺ بعض المعارضة من أصحاب الدور المحيطة بالحرم إلا أنه واجههم بقوة حين قال: أفسحوا للبيت رحبته انتم نزلتم عليه، فاشترى الدور المجاورة للكعبة وادخلها في صحن البيت، ثم ضرب حدودا للمسجد لأول مرة في السنة السابعة عشرة حين قدم ﷺ إلى مكة. وكانت مساحة المسجد الحرام عند خلافته لا تتجاوز حدود بئر زمزم، والمطاف غربا، وكذلك من الشمال والجنوب و لم تكن تتجاوز صحن الكعبة (شكل ٢). وبذلك يعتبر عمر بن الخطاب أول من وسع المسجد و أحاطه بجدار، وجعل له أبوابا وأضاء البيت بالمصابيح الزيتية، كما أمر بعمل سد لحجز السيول عن الكعبة.[٤]

التوسعة الثانية : وفي العام السادس والعشرين من الهجرة زاد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ في اتساع المسجد بشراء البيوت الملاصقة للمسجد فوسع بها المسجد وهدمها وجعل في المسجد أروقة فكان أول من اتخذ الأروقة في المسجد و لم يكن من قبله ذا أروقة أو سقف، وكانت هذه التوسعة الثانية متزامنة مع اتساع الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان ﷺ وأدى ذلك إلى زيادة رواد المسجد الحرام وازدحام مكة بالسكان (شكل ٣).[٥]

التوسعة الثالثة : في العام الخامس والستين من الهجرة زاد عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام وعمره وبناه وزاد من جهته الشرقية والجنوبية والشمالية وجعل فيه أعمدة من رخام (شكل٤).[٥] بدأت التوسعة الثالثة بهدم عبدالله بن الزبير ﷺ للكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم عليه السلام قبل بناء قريش لها، وإخراج الحجر منها لنقص النفقة عليهم، ذلك لأن عائشة – رضى الله عنها- أخبرته أنها سألت رسول الله ﷺ عن ارتفاع باب الكعبة، فقال ما معناه: أولئك قومك يريدون إدخال من شاءوا فيها ومنع من شاءوا ، ولولا أن قومك حديثو عهد بكفر لهدمت البيت ولجعلته على قواعد إبراهيم، ولجعلت له بآبين أحدهما من الشرق وباب من الغرب فقال لها ابن الزبير: أنا قادر على النفقة وقومك بعد عهدهم عن الكفر، فسأبني البيت على قواعد إبراهيم، ففعل.[٦] وبعد أن انتهى عبد الله بن الزبير من عمارة الكعبة المشرفة بدأ بعمارة المسجد الحرام ، فاشترى المنازل المجاورة للمسجد وأدخلها في مساحته ، فازداد المسجد زيادة كبيرة تقدر بحوالي ١٦,٠٠٠م^{٢} ، وكان ذلك في عام خمس وستين من الهجرة النبوية.

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ﷺكتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يقول: إن ابن الزبير جعل الكعبة على قواعد إبراهيم فماذا أفعل؟ فرد عليه عبد الملك: أن اردد الكعبة إلى ما كانت عليه قبل بناء ابن الزبير، وارفع من جدرانها ولا تترك أثرا لابن الزبير هناك. فأعاد عامله الكعبة على بناء قريش. و لم يزد عبد الملك بن مروان في

مساحة الحرم شيئا غير أنه رفع في جدرانه وسقفه بخشب الساج، وزين أساطينه، ووضع على كل رأس أسطوانة مثقالا من الذهب، فكانت عمارته منحصرة في تجديد البناء ورفع الجدار وتسقيفه بالساج وهو أفخر أنواع الخشب وأمتنه، وفي عهده أدار واليه خالد بن عبد الله القسري الصفوف حول الكعبة.[٧، ٨]

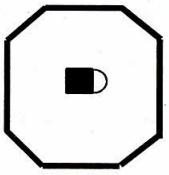
التوسعة الرابعة: في العام الواحد والتسعين من الهجرة هدم الخليفة الوليد بن عبد الملك عمل أبيه وأحدث في الحرم توسعة كبيرة وعمره عمارة جديدة وجلب له الأعمدة والرخام من مصر والشام وأقام العقود، وزين الجدران، وجعل فيها طيقان بأعلاها الفسيفساء، وشد الشرفات بالساج المزخرف، وزين رؤوس الأساطين بالذهب، وآزر المسجد بالرخام من الداخل، وجعل به سرادقات، و أشاع الظل للمصلين، و أمر بفرش جوف الكعبة بالرخام الأبيض والأخضر. وكانت عمارة الوليد رواقا واحدا دائرا على حافة المطاف، أما زيادته فهي من الجهة الشرقية (شكل ٥).[٩]

التوسعة الخامسة: في العام التاسع والثلاثين بعد المائة الأولي من الهجرة تمت الزيادة الخامسة في المسجد الحرام بأمر من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور حيث أضاف إليه مساحة من الأرض واسعة من الشمال والغرب وزاد علي أروقته رواقا أقيم علي أعمدة من رخام وزينه بالنقوش (شكل ٦).
وفي هذه الزيادة شيدت منارة في الركن الشمالي الغربي ، وفرش حجر إسماعيل بالرخام ، كما أحيط بئر زمزم بسياج لمنع السقوط فيه. وبدأت تلك التوسعة في عام سبعة وثلاثين ومائة من الهجرة النبوية، وكان المتولي على أعمال العمارة زياد بن عبيد الله الحارثي، وقد أجحف بدار بني شيبة سدنة البيت ، فتكلم معه سدنة الكعبة أن يميل عنه قليلا ففعل فكان بالمسجد ازورارا.[٩]

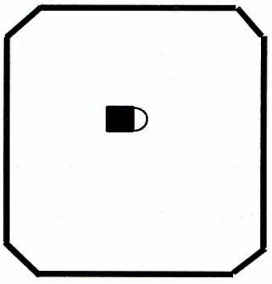
التوسعة السادسة: ومن أبرز التوسعات وأعظمها للمسجد الحرام التوسعة المهدية، فقد وسع الخليفة المهدي العباسي بن المنصور المسجد الحرام علي مرحلتين:
توسعة المهدي الأولى: في العام ١٦٠ من الهجرة، حيث أمر بتوسعة المسجد فاشتريت الدور والمباني وتمت الزيادة في الجهتين الشرقية والشمالية وبقيت الكعبة قريبة من الطرف الجنوبي للمسجد. وعندما حج المهدي في عام واحد وستين ومائة من الهجرة اصطحب معه أموالا كثيرة واشترى الدور المحيطة بالمسجد الحرام، وهدمها وزاد في مساحة المسجد من جميع جهاته، وأمر بنقل الأعمدة الرخامية إلي المسجد، وأمر بتشييده علي أحسن صورة، وتسقيفه بأفخر أنواع الخشب، ولأول مرة يستخدم سقف مستعار للحرم بعمق متر بهدف جعل الزخرفة لا تتأثر بالعوامل الجوية الخارجية وخاصة المطر، وكذلك لحماية المصلين من شدة حرارة الشمس (شكل ٧).
توسعة المهدي الثانية: في عام ١٦٤ هـ حج المهدى حجته الثانية التي بدأ فيها توسعته الثانية للمسجد الحرام من الطرف الجنوبي لكي تكون الكعبة في وسطه. بعد أن اكتملت التوسعة الأولي التي قام بها، لاحظ المهدي أن المسجد لم يتسع من الناحية الجنوبية كاتساعه من الجهات الأخرى، مما جعل المسجد يظهر بصورة غير منتظمة،



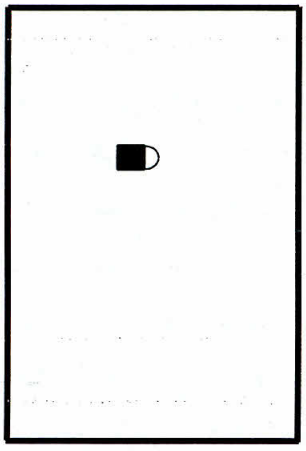
شكل ١: الحرم في عهد قريش سنة ٥ ق.هـ.



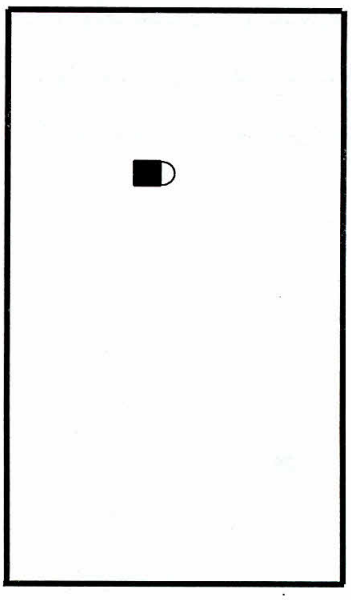
شكل ٢: الحرم في عهد عمر بن الخطاب سنة ١٨هـ.



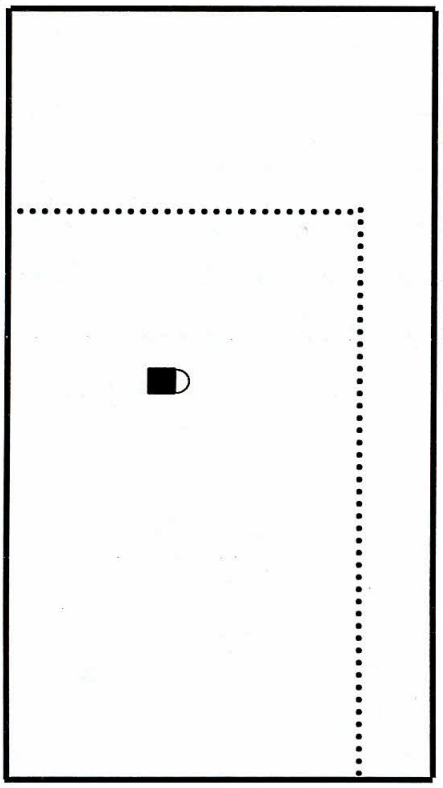
شكل ٣: الحرم في عهد عثمان بن عفان سنة ٢٦هـ.



شكل ٤: الحرم بعد توسعة عبدالله بن الزبير سنة ٦٥هـ.



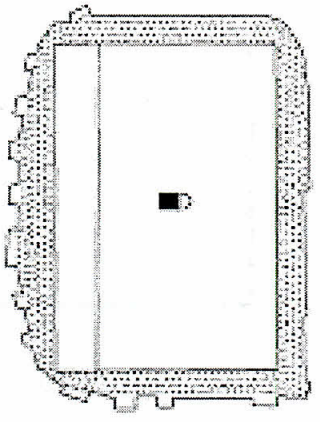
شكل ٥: الحرم بعد توسعة الوليد بن عبد الملك سنة ٩١هـ.



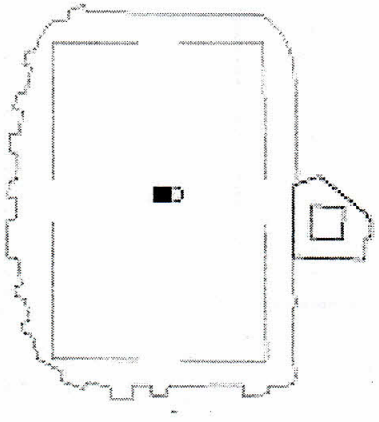
شكل ٦: الحرم بعد توسعة أبو جعفر المنصور سنة ١٣٧هـ.

لكون الكعبة ليست في وسطه، فاستدعى المهندسين وشاورهم بخصوص وضع الكعبة في وسط المسجد، فرأوا أن ذلك من الصعوبة بمكان، لأن هناك عقبات طبيعية تعترض توسعة المسجد من هذه الناحية، حيث تعترض التوسعة مجرى مسيل وادي إبراهيم عليه السلام. ولأن الأمر يستدعى تحويل مجرى هذا السيل وضح المهندسون للخليفة صعوبة تحويل مجرى السيل وكثرة النفقات المترتبة علي ذلك، فصمم الخليفة علي توسعته، وأمر المهندسين في تنفيذ وتحقيق ذلك، فحولوا مجرى السيل رغم كثرة النفقات وعظم الجهد (شكل ٨). وقد استعمل المهدي ميناء الشعيبة لوقوعها علي البحر العميق بصفة مؤقتة لإنزال أساطين الرخام التي أحضرها من مصر والشام ولكن المنية عاجلته، فلم يكتمل العمل في المسجد إلا في خلافة ابنه موسى الهادي.[٩] وبلغت مساحة المسجد بعد الزيادة المهدية ١٢٠,٠٠٠ ذراعا، وبلغ عدد الأعمدة الرخامية التي ضمتها عمارة المهدي ٤٨٤ عمودا موزعة علي جميع جهات المسجد الأربع ، ومن بين هذه الأعمدة ثلاثمائة وعشرون عمودا مذهب الرأس ، وارتفاع كل عمود عشرة أذرع وسمك محيطة ثلاثة أذرع . وبلغ عدد أبواب المسجد الحرام ثلاثة وعشرون بابا موزعة على جميع جهات المسجد. في عام ٢٧١ هـ وقعت دار زبيدة التي بجوار باب إبراهيم على بعض من في سطح الحرم القريب منها فانكسرت أخشابه وسقط اسطوانين من أساطين المسجد، فأمر الخليفة المعتمد بالله عامله على مكة هارون بن محمد بن اسحاق بعمارة ما تهدم من المسجد وجدد له سقفا من خشب الساج وذلك في سنة ٢٧٢هـ.

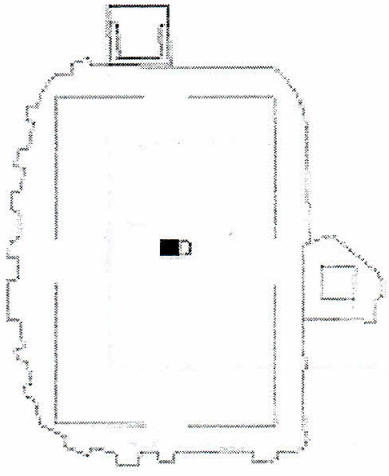
التوسعة السابعة: في عهد المعتضد بالله عام ٢٨٤ هـ، أضيف للمسجد جزء متبق من دار الندوة من الجهة الشمالية، وعرفت "بباب الزيادة" وهي خارجة عن تربيع المسجد (شكل ٨)، وفي عهد المقتدر بالله عام ٣٠٦هـ، أضيفت زيادة أخرى من الجهة الغربية أطلق عليها رحبة إبراهيم، وأصبحت الزيادتين من أروقة المسجد الحرام وأقيمت فيها الأعمدة، وسقفت بالخشب الساج، وجعل سقفها مساويا لسقف المسجد الحرام. وكان العمل في تلك التوسعة في عام أربعة وثمانين ومائتين من الهجرة النبوية. وكانت توسعة المقتدر بالله في عام ٣٠٦ هـ. (شكل ٩)



شكل ٧: الحرم بعد توسعتي المهدي سنة ١٦١ و ١٦٤هـ.



شكل ٨: الحرم بعد إضافة دار الندوة في عهد المعتضد بالله سنة ٢٨٤ هـ.



شكل ٩: الحرم بعد إضافة باب إبراهيم في عهد المقتدر بالله سنة ٣٠٦ هـ.

مؤثرات التوسعات عل التنمية العمرانية

يستخلص مما سبق أن الفترة التي تتزامن مع أي مشروع توسعة يمكن اعتبارها مؤشرا لرخاء اقتصادي واستتباب أمني. لذا يمكن اعتبار أزمنة تلك التوسعات كفترات ازدهار أثناء حكم الخليفة عثمان بن عفان وكانت مكة غنية ومزدهرة ليس من التجارة فحسب ولكن أيضا نتيجة لكرم وهبات الخليفة، ونتيجة لحصص فتوحات المسلمين من أموال الخراج والجزية التي جمعت، وكذلك الغنائم التي أرسلت إلى المدينة المنورة مقر الخليفة من المناطق التي فتحت والتي وجه الخليفة جزءا منها إلى مكة والتي كان لها الأثر على نوها العمراني. وفي عهد الخلافة الأموية أعطى خلفاؤها منحا وفيرة للحجاز بوجه عام ولمكة على وجه الخصوص. وتحت حكمهم حافظ اقتصاد مكة المكرمة على قوته وتمتع المكيون بمستوى رفيع من رغد العيش.

وبنشوب العديد من الصراعات السياسية بين مكة و بغداد أثناء بداية خلافة الدولة العباسية عانت مكة لفترات طويلة من عدم الاستقرار مما أثر في ازدهارها ونتج عنه ارتفاع في الأسعار ونزوح الكثير من أغنياء مكة لمناطق أخرى طلبا لظروف معيشية أفضل.

الإصلاحات والتجديدات الأولى

بعد التوسعة العباسية في عهد المقتدر بالله لم تحدث علي المسجد الحرام توسعة تذكر ، بل كانت إصلاحات وتجديدات علي الأساطين والعقود والسقوف . وفي عام ٨٠٣ هجرية ، قام بيسق الظاهري نيابة عن السلطان أبى السعادات بن الظاهر برقوق بإجراء ترميم شامل علي المسجد الحرام بعد الحريق الذي شب في القسم الغربي ، وامتد إلي القسم الشمالي ، فاستبدل الأعمدة الرخامية التي أتلفها الحريق ، وكان عددها ١٣٠ عمودا ، بأعمدة من الحجر ، وقد جلب بيسق الظاهري الخشب اللازم للسقوف من بلاد الروم ، وبعد أن تمت عمارة المسجد نقشت السقوف وزينت ، وزودت بسلاسل معدنية علقت فيها المصابيح خشية تكرار الحريق.[١٠]

وعندما أخذ العثمانيون السلطة من المماليك في مصر سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) أسسوا علاقات طيبة وقوية مع أمير مكة المكرمة من الأشراف. وبازدياد نفوذ العثمانيين تدريجيا في مكة، أصبحت مكة المكرمة تحت سيطرتهم التامة سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م). فقد شغل الأتراك العديد من الوظائف الهامة وخاصة ما يتعلق بالمعاملات المالية. لم يكن الأشراف راضين عن هذه التطورات فحدثت سلسلة من الصراعات السياسية التي قادت في بعض الأحيان إلى نشوب القتال فيما بينهم، وقد استمرت حالة عدم الاستقرار هذه حتى نجح الملك عبد العزيز آل سعود في استلام السلطة وجعل مكة المكرمة العاصمة المقدسة للمملكة العربية السعودية، ومن ذلك الحين ومكة المكرمة تنعم بالاستقرار والتطور المستمر والذي يلمسه كل مسلم يأتي إلى مكة للحج أو العمرة.

مؤشرات الإصلاحات والتجديدات التنموية

تمتد هذه الفترة من أواسط العهد العباسي وتنتهي بحكم المماليك وتشمل قرابة سبعة قرون من عام ٣٠٦ إلى ٩٢٣هـ (٩٤٠- ١٥١٧م) ظلت زيادة المهدي قائمة حوالي ستمائة عام و لم تجر عليها تعديلات تذكر واقتصرت العمارة في المسجد

علي الترميم والإصلاح وبعض الإضافات. وقد تعاقب علي حكم مكة في هذه الحقبة العباسيون والفاطميون والأيوبيون. وفي أثناء حكم المماليك على مصر وولايتهم على مكة بدأت الأحوال المعيشية والاقتصادية في مكة المكرمة في التحسن بسبب ثراء حكام المماليك وكرمهم و اهتمامهم بالأراضي المقدسة.

وفي مجال التوسع العمراني فقد شهدت المدينة توسعا متواضعا خلال هذه الفترة التي استغرقت قرابة ستة قرون. وكانت معظم المباني حول الحرم هي من المدارس والتكايا والأربطة وعمارات الوقف الذي خصص ريعه للإنفاق علي الحرم المكي الشريف وعلي العموم فقد ظل عمران مكة علي ما هو عليه وظلت مكة تتعدى أوائل حدود المسفلة وقبيل الشبيكة. واتسمت بنية المدينة الحضرية في هذه الفترة بظاهرة جديدة حيث أن حكام مكة كانوا يعنون بتحصين المدينة اكثر مما يعنون بعمرانها فكانوا يبنون القلاع لرد عاديات بعضهم.

عمارة سليم الثاني

تعتبر عمارة السلطان سليم العثماني سنة ٩٨٤هـ من أعظم الأعمال التي أجريت علي المسجد الحرام، حيث أصبحت تضاهي توسعة الخليفة المهدي العباسي. فقد أعاد السلطان سليم بناء المسجد الحرام بعناية وإتقان، فحلت القباب محل السقف الخشبي، وأقام العديد من الأعمدة الرخامية، إذ بلغ عددها ٥٨٩ عمودا، منها ٣١١ عمودا من عمارة الخليفة المهدي العباسي، موزعة علي جميع جهات المسجد الحرام. كما بلغ عدد العقود ٨٨١ عقدا، وضم المسجد ١٥٢ قبة موزعة على جهات المسجد الأربع. وبلغت أبواب المسجد الحرام في التوسعة العثمانية ستة وعشرين بابا: في الجانب الجنوبي سبعة أبواب ، وفي الجانب الغربي ستة أبواب، وفي الجهة الشمالية ثمانية أبواب، وفي الشرق خمسة أبواب. وبلغت مساحة المسجد الحرام في التوسعة العثمانية قرابة ٢٨,٠٠٠ مترا مربعا، ولا تزال العمارة العثمانية باقية حتى الآن داخل العمارة السعودية الأولي.

أبواب الحرم

ولقد تميزت أبواب الحرم القديم (قبل التوسعات السعودية) بسمات خاصة ومن هذه الأبواب (شكل ١٠):

الأبواب المظللة: باب قايتباي، باب الدريبة، وباب العمرة، وكانت هذه الأبواب تؤدى بالحجيج والزوار إلى صحن المسجد ، وتميز باب العمرة بصفة خاصة وهى كثرة الزمازمة وأماكن الوضوء العامة حوله.[١٢]

الأبواب الكبيرة: باب السلام، باب إبراهيم، وباب الزيارة، وكانت هذه الأبواب على مستوى الطرق الرئيسية وعلى الجوانب هذه الأبواب كانت تقوم المكتبات العامة (باب السلام) وتجارات الهدايا الخفيفة (باب الزيارة).

منارات الحرم

قبل التوسعة السعودية للمسجد الحرام (١٣٧٥- ١٣٨٥هـ) كان للمسجد الحرام سبع منائر وهي:

الأولى: منارة باب العمرة شيدها أبو جعفر المنصور وسقطت سنة ٥٥١هـ فعمرها وزير صاحب الموصل ثم جددت بأمر السلطان سليمان خان عام ٩٣١ هـ ثم عمرت سنة ١٢٠١ هـ قبل استبدالها.

الثانية: منارة باب السلام، أنشأها الخليفة المهدي وهدمت عام ٨١٦هـ زمن سلطان مصر برقوق ثم جددها مراد الثالث عام ٩٨٣ هـ قبل استبدالها.

الثالثة: منارة باب علي أنشأها أيضا المهدي وأعاد بناءها سليمان خان عام ٩٧٠هـ بعد خرابها، وجعلها دورين بدل دور واحد وظلت على عمارتها ثم أزيلت.

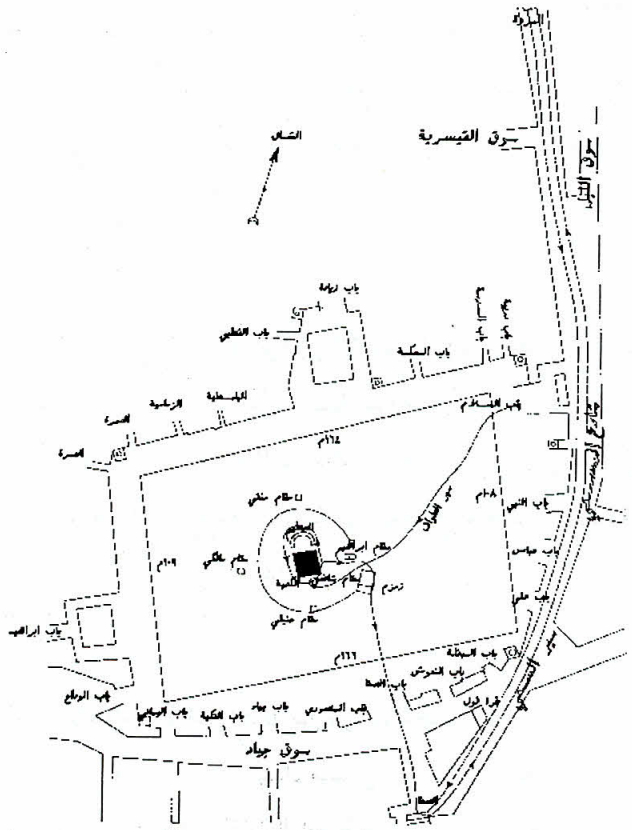
الرابعة: منارة باب الوداع ذكر ابن فهد في حوادث سنة ٧٧٢ هـ أن سلطان مصر الأشرف شعبان عمر تلك المنارة بعد سقوطها سنة ٧٧١هـ وجعلها دورين وظلت على حالها حتى أزيلت.

الخامسة: منارة باب الزيادة أنشأها المعتضد العباسي في زيادة دار الندوة، وذكر ابن فهد في حوادث سنة ٨٣٨هـ أن الأمير "سودون المحمدي" هدم مئذنة سويقة وبناها عاليا.

السادسة: أنشأها الأشرف قايتباي المحمودي خلف مدرسته في الجانب الشرقي فيما بين بابي السلام والنبي ﷺ.

السابعة: أنشأها السلطان سليمان خان العثماني بين مدراسه الأربعة التي شيدها في الجانب الشمالي من المسجد ونظرا لحداثة بناء هاتين المنارتين الأخيرتين فإنهما لم تتأثرا بعوامل الخراب وحدث لهما بعض الترميمات الصغيرة إلى أن أزيلتا.

وبخلاف المنائر السابقة للمسجد الحرام بعض المنائر الصغيرة وكانت اقرب إلى الصوامع منها إلى المآذن.



شكل ١٠: مخطط الحرم بعد العمارة العثمانية وبواباته والتي تمت في عهد السلطان سليم الثاني عام ٩٨٤ هـ.

تأثير توسع الحرم المكي على النمو الحضري لمدينة مكة المكرمة

إن المتتبع لمراحل النمو الحضري لمدينة مكة المكرمة يجد أن الأسباب الدينية هي التي تفسر موقع وشكل التطوير في المدينة المقدسة أكثر مما تفسره الأسباب الدنيوية الأخرى. لقد اختار الله سبحانه وتعالى هذا المكان ليقام فيه أول بيت لعبادة الله وحده، وسخر له خليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام لينشرا الحنيفية في ربوع الجزيرة العربية والعالم، ويمكن تقسيم المراحل التي مرت بها المدينة المقدسة إلى ثلاث مراحل متميزة تمثل كل مرحلة لبنة منفردة في نموها وتطورها:

مرحلة ما قبل الإسلام

وتشمل المراحل التي ذكرت سابقا أي من عهد عمارة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام للكعبة، ثم أبناء إسماعيل الذين كانوا يعيشون في الخيام والمضارب حول الحرم، وشهدت مكة أعمال بناء حين عاد قصي بن كلاب من الشام في القرن الثاني قبل الهجرة، فبنى فيها المساكن والبيوت حول الكعبة، ومن ثم أخذت تزيد في عمرانها، وأصبحت مركزا تجاريا مهما. وجاءت بعدها عمارة قريش المذكورة آنفا إلى أن فتحها النبي محمد ﷺ.

لقد عرفت مكة منذ أحقاب طويلة ممعنة القدم قبل عهد إبراهيم عليه السلام. غير أنه من المؤكد أن وصول إبراهيم إسماعيل عليه السلام يمكن اعتبارها البداية الجلية لتاريخ مكة.

لقد حددت العناية الإلهية موضع هذا المكان المقدس وهيأت له أسباب الحياة فكانت بئر زمزم استجابة لدعوة أم إسماعيل وغوثا للهفتها على وليدها. وقد منحت بئر زمزم أسباب البقاء والنماء لهذا المكان المبارك عندما بدأت القبائل العربية تسكن هذا المكان. ثم كانت الخطوة الثانية وهي رفع قواعد أول بيت للتوحيد، مما جعل هذا المكان مهوى أفئدة الموحدين بالله.

مكة المكرمة في العهد الإسلامي

لقد اختار الله هذه البقعة المباركة لتكون الموطن الأول للدعوة إلى الإسلام التي حملها الرسول الكريم ﷺ، كما كانت موطنا لدعوة التوحيد التي دعا إليها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. واشرق نور الإسلام من بطاح مكة وزلزل أركان قريش فقاومته في أولى عهده ثم لانت قناتها للإسلام، وحمله أبناؤها إلى بقاع الجزيرة العربية الأخرى ثم إلى البقاع المجاورة ليشمل الرقعة الأرضية للعالم الإسلامي اليوم، وأصبحت مكة المكرمة بؤرة الإسلام وقد عاشت خلال العهود الإسلامية فترات مختلفة من تاريخها يمكن تقسيمها إلى ثلاث فترات متباينة هي:

فترة الازدهار

عاشت مكة المكرمة منذ بزوغ العهد الإسلامي فترات مختلفة من تاريخها يمكن وصف الفترة الأولى بعهد الازدهار تلتها فترات متباينة. وتشمل فترة الازدهار صدر الإسلام ابتداء من البعثة النبوية مرورا بدولة بني أمية عام ١٣٢هـ (٧٤٩ م) وأوائل العهد العباسي في مبتدأ القرن الرابع الهجري. ففي خلال هذه الحقبة أصبح سكان مكة من الصحابة والتابعين قوادا وجنودا في جيوش الإسلام في عهد الراشدين والأمويين، وانتقل العدد الكبير

منهم إلي البلاد المفتوحة في مصر والشام والعراق. وشهدت مكة في عهد النبوة وعهد الراشدين نوعا من الهجرة النازحة إما إلى المدينة المنورة في أوائل عهد البعثة و إما إلى أمصار العالم الإسلامي مع الجيوش الإسلامية أو لتولي المناصب القيادية في الأمصار المفتوحة.

أما في العهد الأموي فقد شهدت المدينة المقدسة نوعا من الهجرة الوافدة، فقد غصت مكة في هذا العهد بجمهرة كبيرة من طلاب العلم وفدوا إليها من أقطار العالم الإسلامي، ليتلقوا العلم عن الصحابة والتابعين. كما شهدت مكة عودة بعض أبنائها ممن غادروها للاشتراك في الجهاد وحركات الفتح.

لقد تضخمت الثروات في ذلك العهد فزاد النشاط التجاري وتوسع المزارعون وتنافسوا في حفر الآبار، وقد وجدت بساتين (حوائط) النخل والزرع في المعلاة والحجون والشهداء والمسفلة وفاضت أسواق مكة بمنتوجات ضواحيها من الحبوب والخضر وشاع الرخاء فعم الحاضرة والبادية.

إن توسعات الحرم المتعاقبة كانت تعني توسعة المدينة نحو الأطراف، لأن من يهدم بيته كان يقوم بالبناء في مكان ابعد عن الحرم.[١٢] هكذا نجد أن توسعات الحرم كانت تساعد بطريقة غير مباشرة على زيادة رقعة المدينة المقدسة. ويمكن القول أنه في خلال هذه الفترة الذهبية التي عاشتها مكة في عهد الراشدين والأمويين وأوائل العهد العباسي في بداية القرن الرابع الهجري زادت كثافة البيوت من حول المسجد الحرام لأن غالبية السكان كانوا يفضلون السكنى بالقرب منه، فأخذ وسط أم القرى شكل المدينة المكتظة، وتركت الأطراف للقبائل التي تزلها تؤدي دور الضواحي للمدينة.[١٣] ولم يزد الاكتظاظ في طول المدينة عن الجودرية (بئر مطعم ابن عدي) من الناحية الشمالية. أما من الجهة الأخرى فلم يتجاوز العمران الشبيكة. أما شرقها إلى غربها فقد كان تكاثف السكان فيها من أوائل مدخل أجياد إلي القشاشية إلى النواحي القريبة من سوق الليل وشعب بني هاشم، ومن سويقة إلى قرارة المدعى إلى الجزء القريب من الشامية. ومما يجدر ذكره أن تحديد العمران في هذا العهد لا يعني به التحديد المتبادر إلى الأذهان، لأن المعروف أن كثيرا من السكان كانوا يسكنون إلى مسافات تتجاوز هذه الحدود، فشعب عامر كان مسكونا في العهد الجاهلي وكذلك كانت الحجون والمعابدة. وإذن فالمراد بالتحديد هو العمران المتصل وهذا لا يمنع من وجود المساكن في الضواحي القريبة.[١٤]

فترة الركود

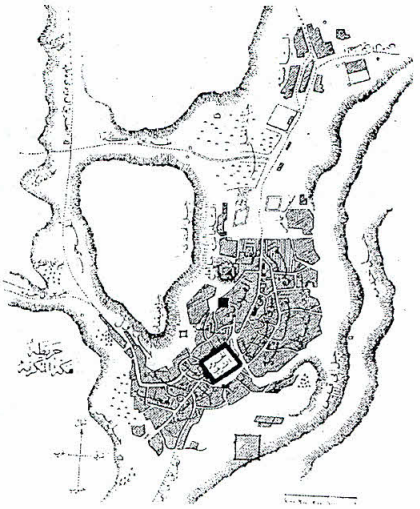
وفي سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) من زمن الخلافة العباسية أضحت مصر تحت حكم الدولة الفاطمية ومكة تحت حكم الأشراف، وقد تنافس الفاطميون في القاهرة والعباسيون في بغداد مع بعضهم البعض حول القيادة الإسلامية بمحاولة تأسيس علاقات وثيقة مع حكام مكة المكرمة. وبما أن الفاطميين كانوا أكثر نفوذا، فقد تم الأخذ بعاداتهم وبعض تقسيماتهم الإدارية وتوزيع السلطات والمسئوليات لديهم في مكة المكرمة. وبانتهاء الحكم الفاطمي حوالي عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وتأسيس الدولة الأيوبية في مصر وفي سوريا، مدت هذه الدولة الجديدة نفوذها إلى مكة المكرمة والحجاز، وانتهت بعد فترة دامت حوالي ثمانين سنة، ولم تتأثر حياة مكة المكرمة بحكمهم مثل ما حدث لها أيام الفاطميين.

وفي مجال التوسع العمراني فقد شهدت مكة توسعا متواضعا خلال هذه الفترة التي استغرقت قرابة ثمانية قرون. وكانت معظم المباني حول الحرم هي من المدارس والتكايا والأربطة وعمارات الوقف الذي خصص ريعه للإنفاق على الحرم المكي الشريف وعلى المجاورين وعلى العموم فقد ظل عمران مكة على ما هو عليه وظلت تتعدى أوائل حدود المسفلة وقبيل الشبيكة.[١٥] واتسم الشكل العمراني للمدينة في هذه الفترة بظاهرة جديدة حيث أن حكام مكة كانوا يعنون بتحصين المدينة اكثر مما يعنون بعمرانها فكانوا يبنون القلاع لرد عاديات بعضهم.

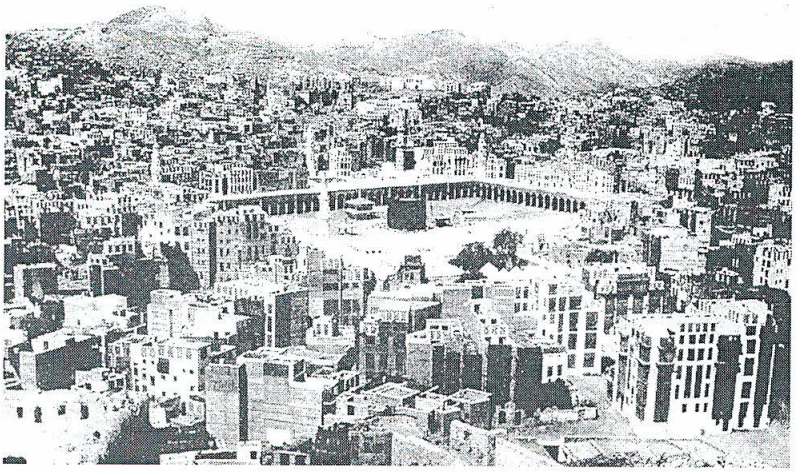
فترة الانتعاش

في الفترة من عام ٩٢٣ إلى ١٣٤٣هـ (١٥١٧- ١٩٢٤ م) آلت مقاليد المسلمين إلى آل عثمان في تركيا الذين اتسعت فتوحاتهم وشمل نفوذهم الحرمين.[١٢] وطوال هذه الحقبة كانت الهجرة مستمرة إلي مكة، فقد بدأت آفاق الإسلام تجد طريقها ميسورا إلى مكة اكثر من ذي قبل فكثر المجاورون، وتنوعت أصنافهم. وساعدت قوة الدولة العثمانية خلال القرنين الأولين لحكمها على اتساع عمران المدينة وازدهارها حيث كانت هذه فترة عز الدولة العثمانية، ثم ساعدت أطماع أوربا في أملاك العالم الإسلامي على الهجرة إلى مكة بعد تلك الفترة، خاصة بعد أن دب الضعف في كيان الدولة العثمانية، الأمر الذي شجع الدول الغربية على اقتطاع أملاكها وزادت الفتن والحروب وفر كثير من سكان هذه البلاد بدينهم والقليل بدنياهم إلى مكة وبقية مدن الحجاز، لبعد هذه البلاد عن ضغط الأوربيين.[١٣] وقد بدأ أثر ذلك واضحا في مكة حيث نجد بالإضافة إلى سكان مكة من الأشراف وآل البيت أن كثيرا من العائلات التي تسكنها تنحدر اليوم من أصول مصرية أو تركية أو مغربية أو شامية أو صينية أو هندية أو إندونيسية.[١٦، ١٧] لقد اتخذ هؤلاء من مكة مناطق خاصة بهم سميت بأسمائهم حيث نجد من آثار ذلك جبل الترك وجبل هندي وجبل السليمانية (الأفغان) وزقاق المغاربة وزقاق البخارية، وأصبحت مكة تنقسم باعتبار الأجناس إلي أقسام تشبه المستوطنات، كل مستوطنة تسكنها جالية. فهناك منطقة للترك وثانية يستوطنها أهل البنغال والهند وثالثة أهالي غرب إفريقيا وأخرى يستوطنها ا الجاويون وأهل بخارى وأهل الشام واليمن وحضرموت.[١٨، ١٩]

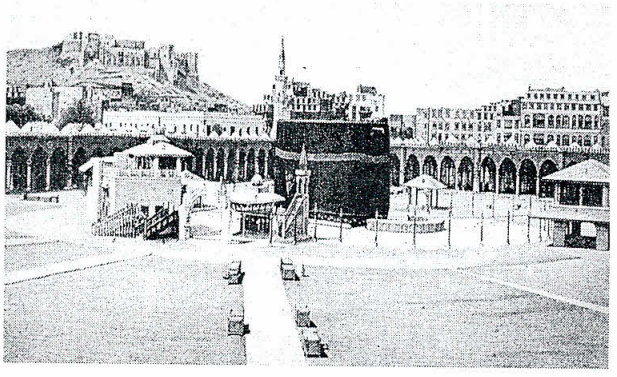
وتتصف شوراع مكة بأنها ضيقة غير منتظمة، ما عدا شارعا مشهورا يقطعها من جنوبها الغربي إلى شمالها الشرقي يبتدئ من الشيخ محمود أو جرول مارا بباب العمرة إلى باب التكية المصرية ثم إلي المسعى وعلى طريق القشاشية وسوق الليل إلى آخر مكة من جهة المعلاة، ويتراوح عرض الشارع ما بين ثمانية وعشرة أمتار ويصل في بعض الأحيان إلى عشرين مترا. ومن الحارات النافذة إلى الشارع المذكور حارة الباب وحارة الشبيكة والسوق الصغير وأجياد وسوق الليل وسوق الصفا والمسعى والقشاشية عن اليمين ويليها الغزة ثم سوق المعلاة والبياضية وعن يسار القشاشية المسعى إلى المروة الذي به يسارا باب السلام ويمينا طريق المدعى ثم الجودرية ثم المحناطة. ومن حارة الباب ينفذ إلى سوق الشامية ومنه إلي المروة (شكل ١١). ومن الجهات التي بها مبان فخمة وآثار جمة جهة جرول والمسفلة وشعب أجياد والقشاشية والغزة وشعب بني عامر والشامية والقرارة والسليمانية وبها النقا والمنحنى والمعابدة والبياضية والمعلاة الذي بها المقبرة المشهورة قبل الإسلام (شكل ١٢-١٤).



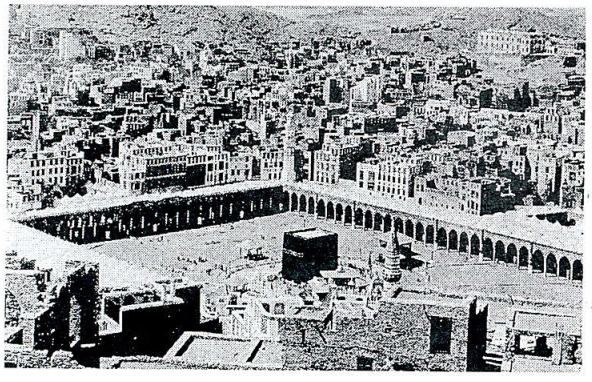
شكل١١: طرق المواصلات والحارات المحيطة بالحرم.



شكل ١٢: المساكن ذات الارتفاع المتوسط المحيطة بالمسجد الحرام من جميع الجهات.



شكل١٣: المشايات المؤدية إلى المطاف وقد ظهرت بعض العناصر مثل المنبر ومقام إبراهيم وباب بني شيبة وبئر زمزم.



شكل ١٤: ساحة الطواف وقد أحيطت بسياج حول المنطقة المرصوفة والأروقة العثمانية.

الخاتمة

تتميز منطقة الحرم المكي الشريف بثبات المكان وديمومته إذا أن أي عمل حيال المحيط العمراني للحرم يجب أن يأخذ نصب عينيه هذه القاعدة. لقد كانت المدينة المقدسة خلال فترات التوسعات للحرم المكي الشريف مثلا للمدينة الإسلامية التي تلتف حول مركزها الديني (الحرم الشريف) وعرفت بحاراتها وأزقتها العتيقة الضيقة المتعرجة التي تصب من جميع الجهات في اتجاه المسجد الحرام، إضافة إلي الأسواق التي انتشرت من حول الحرم لخدمة الحجاج. لقد استمر هذا النمط العمراني يشكل الخطوط العريضة لنمو مدينة مكة المكرمة حتى أواخر العهد العثماني. استمدت مكة المكرمة شكلها الطبيعي الذي أخذته منذ قيامها وحتى تاريخنا هذا من طوبوغرافية المنطقة ومن التأثير البارز للإسلام. فالحرم الشريف الذي يسمو وسط مكة المكرمة هو مركز الحياة الحضرية وتتجمع

حوله كافة النشاطات الرئيسية الدينية والمدنية والاجتماعية والثقافية والتجارية. عندما تتبعنا مراحل النمو في مكة المكرمة وجدنا أن الأسباب الدينية هي التي تفسر موقع وشكل التطوير في المدينة أكثر مما تفسره الأسباب الدنيوية المادية. لقد اختار الله هذا الموقع القاحل النائي ليكون مهد الرسالات السماوية وخاتمها دين الإسلام المرسل إلى البشرية كافة. عندئذ أصبح الحرم المكي مركزا لجميع الشعوب الإسلامية في كافة أنحاء العالم. ونتيجة لبناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الكعبة المشرفة في مكانها المحدد بعناية إلهية، أصبحت مكة مركز هذا الدين وبدأ مزيد من الناس يهاجرون إليه.

تشكل البيئة التي حول الكعبة والمنطقة المحيطة بها مباشرة القلب التاريخي لمكة وهو الجزء الذي يلتف حول الحرم الشريف مركز هذه المدينة المقدسة. وقد تطورت هذه الرقعة خلال القرون الماضية من اجل خدمة غرض معين ومحدد بالذات ألا وهو تقديم التسهيلات للحجاج والمعتمرين سواء قبل أو بعد الإسلام.

إن الرغبة الطبيعية للعيش قرب الكعبة المشرفة أدت إلى استعمال كافة المساحات المتوفرة لتوفير الأماكن للسكن والمحلات التجارية. ولقد كان على الطرق والمساحات العامة وبقية المساحات المكشوفة أن تقاسي وتعاني من نشاطات الإنشاءات المذكورة إذ قامت تلك النشاطات على حساب تلك المرافق.

ومع نمو المدينة قامت إنشاءات عمرانية في المناطق المحيطة بالحرم أخذت نفس النمط بالقدر الذي تسمح به طوبوغرافية الأرض. وقد تبعت النشاطات التجارية خط امتداد الطريق الرئيسي المتجه إلى المركز أو الخارج منه وكان حجمها يتناقص كما تتناقص أهميتها كلما ابتعدنا عن الحرم الشريف وكلما صعب الوصول إليها من المنطقة المركزية.

ومن الخصائص الرئيسية في هيكل وتكوين المدينة تجمع السكان فيها على شكل جاليات حسب المكان الذي قدمت منه عند حضورها للحج أصلا". ويعتبر هذا نتيجة ديموغرافية طبيعية لمكانة المدينة في قلوب المسلمين في شتى بقاع الأرض.

المراجع

[١] الأزرقي، محمد بن عبد الله بن احمد. *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*. مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٣٩٨هـ.

[٢] الأنصاري، عبد القدوس. *التاريخ المفصل للكعبة المشرفة قبل الإسلام*. مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٠٣ هـ.

[٣] ابن منظور، محمد بن مكرم (ت:٧١١هـ). *لسان العرب المحيط*. إعداد يوسف خياط، بيروت: دار لسان العرب، ١٤٠٠هـ.

[٤] جاهين، مصطفى أمين. "مكة المكرمة في التاريخ" ، *الدارة*، العدد الأول، السنة الحادية عشر، شوال ١٤٠٥هـ، ص.ص ٢١٧-٢٢٥.

[٥] باسلامة، حسين عبد الله. *تاريخ عمارة المسجد الحرام*. جدة: تهامة، ١٤٠٠هـ (الطبعة الثالثة).

[٦] احمد، مهدي رزق الله. "عمارة الكعبة عبر دراسة تاريخية تحقيقية". *الدارة*، العدد الأول ، السنة الرابعة والعشرون، ١٤١٩هـ ، ص ص ٦٣ - ١٣٩.

[٧] الصاوي، أمينة. *الكعبة المشرفة*. القاهرة: كتاب اليوم، العدد ٢٨٢، مايو ١٩٨٨.

[٨] الخربوطلي، على حسين. *تاريخ الكعبة*. بيروت: دار الجيل، ١٤٠٨هـ.

[٩] الفاسي، تقي الدين. *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*. مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٣٧٦هـ.

[١٠] الحجي، محمد صالح بن احمد زين العابدين الشيبي العبدري. *إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام*. تحقيق إسماعيل أحمد إسماعيل حافظ، مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي، ١٤٠٥هـ.

[١١] الكردي، محمد طاهر. *التاريخ القويم لمكة وبيت الله القويم*. مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٣٨٥هـ.

[١٢] عنقاوي، سامي. " التطور التاريخي للمسجد الحرام وبناء الكعبة المشرفة". تغطية خالد على المطرفي، *جريدة المدينة*، العدد ٧٣٩٢ في ٢٩ ذو القعدة ١٤٠٧ هـ والعدد ٧٣٩٣ في ١ ذو الحجة ١٤٠٧هـ.

[١٣] الطلحي، محمد محمود سيد برياني. *الحرمان الشريفان بين الماضي والحاضر*. جدة: دار المعراج للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ.

[١٤] مطر، فوزية حسين. *تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف*. جدة: تهامة، ١٤٠٢هـ.

[١٥] آل مشاري، منى حسن محمد مقرن. *المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي (من ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م إلى ٩٢٢هـ-١٥١٧م)*. رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ١٤٠٩هـ، الرياض.

[١٦] هورخرونيه، ك . سنوك، *مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري*. نقلة إلى اللغة العربية: محمد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا، وراجعه محمد بن إبراهيم احمد على، مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤١١هـ.

[١٧] نواب، عواطف محمد يوسف، *الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلة مقارنة*. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٧هـ.

[١٨] البتنوني، محمد لبيب. *الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر*. القاهرة: مطبعة مصر، ١٣٢٩هـ (الطبعة الثانية).

[١٩] رفعت، إبراهيم. *مرآة الحرمين في الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية*. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ.

The Sacred Mosque of Makkah: Its Establishment, Extensions, and Effects on the Urban Surroundings Before the Saudi Extensions

Mohammed Eben Abdullah Eben Saleh
Department of Architecture and Building Sciences,
College of Architecture and Planning, King Saud University
Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia

Abstract: The earliest recorded settlement in the holy city of Makkah goes back to the time of Prophet Ibrahim (PBUH) when he brought his wife Hager and his son Ismail (peace be upon them) to a site near the place of The Holy Ka'aba at the point where *Zamzam* spring had flown. After Prophet Ibrahim voiced around his call to Hajj, the place became the heart-land for people and a focal point of peace and a cradle of Islam which had shone over the world after the great opening of makkah in the eighth year after Hijra.

Since then, the Holy Haram of Makkah underwent a series of developments and extensions. The range varied from time to time according to the flourishing of the economy happening at each time and followed by an urban growth and development in all aspects of life in the city. History tells us that the Haram was, in some ages, left without improvements when the city of Makkah was in a still economy and some political instability.

Despite the fact that the history of Makkah dates back to many centuries, the building of the Holy Ka'aba by Ibrahim and his son Ismail was, in fact, the obvious beginning of this holy city. After that, Qusay bin Kilab (the fourth grandfather of Prophet Mohammad (PBUH) held the power in Makkah, established the rules of stability around the Holy Ka'aba, and set the beginning of the official law for this holy city. In the urban sense, the time of the Khalifa Omar bin Alkhattab is considered as the beginning step of defining the urban parameter around the Holy Mosque, which, after that period, underwent a series of extensions. These extensions, though, had always caused the urban areas to crawl towards the sides of valleys and on the mountains.